جففها صديقنا / وعندما ودعت اصدقائي الجدد / عدت الى محطة الباصات / وحينما وصلت للقرية لم تكن / سلة برتقال / تلوح في يدي ٠٠ ولم / احضر لاختي فاخر الثياب / لانني عدت من المدينة / وفي فمي بشارة حزينة / عدت بلا عمل ٠٠٠ » (١١) ٠

وفي قصيدة « المنفى ثلج » يقول :

« هل تذكرني يا حمدي ، يا علم الدين / كنا في السجن نقيض يقين / ننشد في ثقة لا تقهر / للثورة للجيش الاحمر / نرسم لوحات عن عمال النفط ، / وعن مأساة الفلاحين / نحفر في الحائط اسم لينين » (١٢) ٠

ان الشاعر هنا يؤكد ان ارتباطه بالطبقة العاملة هو ارتباط عضوي ، ارتباط ايديولوجي وتنظيمي ٠ ففي قصيدة « حلم كاذب » يطالب رفاقه العمال ان يغفروا له خطيئة خيانتهم في الحلم ، حيث حلم انه القى بالراية الحمراء في الوحل وانضم الى صفوف الاعداء ، وفجأة نظر الى الخلف فلاح له موكب العمال والراية الحمراء تخفق فوق رؤوسهم ، فأغرقه الندم في الوحل واحس نفسه صغيرا امام موكبهم ! ٠٠ ولكن الشاعر يرمي في قصيدته الى ادانة العملاء والجواسيس حيث يقول عنهم :

« ماتوا ، وظلوا في الحياة / ديدان ليل يبحثون على الموائد عن فتات / وينظفون نعال سيدهم ، / عدو الكادحين / لا يسمعون من الحياة ٠٠ ومن انين / اخواني الجرحى ، وصوت هدير زحف الثائرين / شيئا ٠٠ ويفتح باب نبع قصيدهم ٠٠ / كلب حزين ! » (١٣) ٠

فالعميل يعيش ويموت تافها وحقيرا ٠ ولكن الرفاق المناضلين سيخلصون ابناء العملاء من هذا المصير ـ الموت ٠ ففي قصيدة « حواكير الطفولة » يقول شاعرنا :

ـ « وليد ٠٠ لن يشقى ٠٠ وابناء اخي ٠٠ / وسائر الاطفال لن يشقوا / وحتى صبية العميل لن يشقوا ٠٠ ولن يمرغوا / ضميرهم بالعار ٠٠ حتى يأكلوا الفتات ! / فلتنبح الكلاب ٠٠ / ان ربها موات ! / ونحن باقون هنا / للارض ، للربيع ، للاطفال ، / للغد الذي يليق بالانسان / للحياة ! » (١٤) ٠

وهنا يمكننا ان نسوق مقطعا طريفا يؤكد مدى ارتباط ذاكرة الشاعر بطفولته ، ففي قصيدة « العالم الضائع » يقول :

« هل تذكرون ؟ وضحكنا بعدها / حين رجا « جهاد » / بيتين في حلوته وداد / اليوم صارت زوجة / ، وقد شيبها الاولاد ! » (١٥) ٠

ان الشاعر يريد ان يذكر بأن الشعب باق يتوالد ، كالنهر الجاري في فلسطين ، على ضفتيه تنمو الاشجار وينبت العشب ، رغم محاولات الرمل الصهيوني المستمرة من اجل قتل النسغ الفلسطيني في عروق الارض ٠

شاعر عراقي وفان كوخ

في الديوان قصيدتان ، واحدة منهما حول الشاعر الثوري الذي « ارعبت قصائده النظام فقامت شرطة النظام بحرق دواوينه الموجود في المكتبات ٠٠٠ والقصيدة الثانية تتحدث عن مشاعر « سالم جبران » بعد حضوره معرض رسوم الفنان « فان كوخ » حيث يتأوه البرجوازيون اعجابا بلوحاته ، في الوقت الذي كانوا فيه يتجاهلونه قبل ان يموت ، كان وحيدا منبوذا جائعا ٠٠ وعند موته نصبوه فنانا خالدا بعد أن طمره التراب ٠

والقصيدة بعنوان « ثورة على الرياء » ، وتبدأ بداية ساخرة من البرجوازيين :

« انه يختصر العالم في بعض خطوط / ان في لوحاته نبض واحلام الحياة » / ههاه ٠٠ ههاه ! / اترى كان على فان كوخ ان يحيا السنين جائعا ، يضرب في الارض وحيدا / ان يعيش العمر منبوذا / فلا يحظى من العالم الا / ببصاق التافهين / فاذا مات اقاموا الضجة الكبرى ، وعدوه كبير الخالدين) (١٦) ٠

هموم قومية

ان موقف « سالم جبران » من الشاعر الشيوعي ، ومن الرسام فان كوخ ، هذا الموقف لم يكن بدافع ديمقراطي برجوازي ، او ليبرالي ٠٠ انما كان في أفق الموقف القومي والاممي للشاعر باعتباره شيوعيا ٠ لقد تفاعل الشاعر مع معظم الحركات التحررية في الوطن العربي ، وانشد المدن التي عصفت فيها رياح الحرية ، منطلقا من « القدس » الى عدن ، فبغداد ، فبور سعيد :

ـ « الشمس في قلبي / واني واثق / بأمتي حين يطوف الموت في ساحاتها / تعرف كيف تخلق الحياة » (١٧) ٠ هذا ما قاله الشاعر عن مدينة القدس ، فماذا قال عن بور سعيد :

ـ « قبر الاساطيل على شاطئك العنيد / قبر الصليبيين / المجد للسلاح ، للايدي ، / لشعب طيب / أقسم : لن يلينا ! » (١٨) ٠ هذه القصيدة كتبها الشاعر في اعياد النصر ، فماذا اكتب عن الثورة في عدن :

ـ « في موكب التحرير ، في كتائب النضال / في الليل ، نحن شعلة / تضيء درب النصر ، في الظلام / عيوننا ساهرة / كالقمر البعيد لا تنام » (١٩) ٠ مقابل الاغنيتين السابقتين الى عدن ، وبور سعيد اللتين انتصرتا يخصص الشاعر عددا من قصائده ليحدثنا عن بائع الصحف الذي اعدم لانه كان يبيع صحيفة الشيوعيين ، وحدثنا عن الشاعر الشيوعي الذي احرقوه كتبه ٠٠ كما يحدثنا عن الطفلة التي تطاير جسدها الجميل الصغير بين جنازير الدبابات :

ـ « هذا الشعر الاسود / ما حملته النسمات / من محلقة / في الشارع ، للطرقات / كلا ٠٠ / فهو بقية رأس فتاة / داستها ، قبل قليل ، / عجلات الدبابات ! » (٢٠) ٠

ان الديوان يبرز لنا مد افتخار الشاعر بقوميته العربية ، ولكن هذا الافتخار ليس شوفينيا انما ضمن الافق النضالي الاممي ٠

فالشاعر الذي غنى لعدن وبور سعيد ، انشد بنفس القوة للفيتنام ومدريد ٠٠ وموسكو ٠

الموقف الاممي

لقد كان الشاعر واضحا في موقفه الاممي ، انه مع قوى الثورة ، ضد الامبريالية وقواها ٠ مع ضحايا الامبريالية ضد ذئابها ٠ مع الهنود الحمر ، ضد المستعمرين البيض في امريكا :

ـ « زهر على القبور امريكا ، / ورقص وأهازيج

الشاعر محمود درويش

على الاشلاء ٠٠ / لم يبق منكم غير أفلام ، / تثير الضحك ٠٠ والبكاء » (٢١) ٠

والامبريالية الامريكية التي تأسست على ابادة شعب امريكا الحقيقي ، تحاول ضمن استراتيجيتها المعادية لكل شعوب العالم ان تفعل الشيء نفسه في الفيتنام ، ولكن الظروف التي ساعدت في ابادة الهنود الحمر تختلف عن الظروف التي تتحرك في اطارها الثورة الفيتنامية ، لان العالم الآن يشهد انتقالا عميقا واسعا الى الاشتراكية ، ولان الاستعمار والامبريالية يشهدان قبرهما يتعمق ويتسع في كل شبر من الكرة الارضية وخصوصا في آسيا ٠٠ فالشعوب المضطهدة كلها تقف في خندق واحد ضد العدو الواحد :

(٢٠) المصدر نفسه ٠ قصيدة « بقية » ٠ ص (٦٥) ٠
(٢١) المصدر نفسه ٠ قصيدة « عن الهنود الحمر ص (٧٨) ٠
(١١) نفس المصدر ٠ ص (٥٣) ٠
(١٢) نفس المصدر ٠ ص (٧٠) ٠
(١٣) المصدر السابق ٠ ص (٨١) ٠
(١٤) نفس المصدر ٠ ص (٥٧ ـ ٥٨) ٠
(١٥) نفس المصدر ٠ ص (٤٠) ٠
(١٦) نفس المصدر ٠ ص (٧٩) ٠
(١٧) المصدر السابق ٠ قصيدة « الى القدس » ٠ ص (٨٨) ٠
(١٨) المصدر نفسه ٠٠ قصيدة « اغنية الى بور سعيد » ٠ ص (٨٦) ٠
(١٩) المصدر نفسه ٠ قصيدة « اغنية عدنية » ٠ ص (٧٢) ٠

ـ « يا رياح الموت في فيتنام ، / ان الاهل اهلي ٠٠ والديار / حيثما تعصف رياح الموت بالناس ، دياري / ضحك الاطفال فحم ٠٠ والشظايا / أكلت لحم الصبايا ٠٠ والكبار / يحرقون الارض تحت المجرم المحتل ، / افدي نارهم أقدس نار ٠٠ » (٢٢) ٠ لقد كان امل الشاعر بحتمية انتصار الشعب الفيتنامي ينبع من ايمان مطلق بانتصار قوى الشمس على قوى الظلام الامبريالي ٠٠ ولم تمض عشر سنوات ـ القصيدة كتبت ١٩٦٥ ـ حتى تتحقق حلم الشاعر وهزمت الامبريالية الامريكية وانتصر الشعب الفيتنامي في ٣٠ نيسان ١٩٧٥ ٠

الشاعر توفيق زياد

الشاعر سميح القاسم

ومثلما غنى الشاعر الى فيتنام غنى لعمال مدريد :

ـ « عمال مدريد الالى احبهم / يا أخوتي الشجعان / « استيقظوا » لغيركم / يا رجال / في مهجتي ذكرى ضحاياكم ٠٠ وفي فمي لبشرى نصركم ألحان » (٢٣) ٠

ان الحرب الطبقية في اسبانيا تختلف عن الحرب القومية الطبقية في الفيتنام ، رغم آن الثانية كانت أصعب وتجابه عدوا اشرس ٠ والشاعر « سالم جبران » يحذر العمال من التضليل الواسع الذي يمارسه البرجوآزيون والامبرياليون في صفوفهم :

(٢٢) المصدر السابق ، قصيدة « فيتنام » ص (٨٩) ٠
(٢٣) المصدر نفسه ، قصيدة « اغنية الى اسبانيا » ص (٦٤) ٠

« الدنيا كانت دار عذاب / الجائع فيها كالشبعان / والكاسي فيها كالعريان / وحياة الناس حظوظ / قسمها الديان / فحمل نيرك واسكت يا انسان » (٢٤) ٠ هكذا كان الاعداء الطبقيون والامبرياليون يبثون روح الذل والخنوع والخضوع للامر الواقع في صفوف الطبقات الفقيرة الكادحة ٠ ولكن الشاعر يقول لهم :

ـ « دوسوا تحت الاقدام / أكاذيب الاجيال / هذي الدنيا / صنع سواعدكم / ملك سواعدكم يا عمال » (٢٥) ٠ وينشد لرفاقه ان يتقدموا الى الامام فقانون هذا الكون ، ان لا حب بدون ألم ، وعلينا أن نغسل اعيننا بنور الشمس كي لا نرهب الظلام ٠٠ شرط ان لا ننسى لحظة حتمية انتصارنا ، وأن لا نفقد هنيهة ايماننا بالنصر ٠٠ فاذا ما فقدنا هذا ونسينا ذاك متنا كالغطاس دون بريق !

ان انتصار عمال موسكو لدليل ساطع على أن نهاية البرجوازية يحتمها انتصار الطبقة العاملة ، وان عذابات العمال في مدريد واليونان هي الكؤوس الاخيرة في آخر الليل :

ـ « هذي آخر كأس / فدعوا ، يا اصحابي الاحزان / طوفوا مدريد وغنوا / لا تبكوا « خوليان » / و « سلام » ٠٠ عليه سلام / وحرام ان تدمع عينان / لا ترثوا صرعى السل الاصغر ، / في زنزانات اليونان / موتانا ليسوا موتى / موتانا رواد شجعان » (٢٦) ٠ ويتابع الشاعر قائلا :

ـ « جذع البلوط ، رفاقي / لا تقطعه الديدان ٠ / وجرائمهم ـ / اخر كأس عذاب / في تاريخ الانسان » (٢٧) ٠

الشاعر في موسكو

آخر قصائد ديوان « كلمات من القلب » كتبها الشاعر عن موسكو ، ومن موسكو كتب قصيدة « اخبار الوطن » ٠ فالاخبار سيئة ، دم ونار في المنطقة المحتلة ، والعمال مصيرهم السجن اذا طلبوا اللقمة لافواه أطفالهم المفتوحة والماء لحلوق صغارهم الجافة ٠ « وبهية » الفتاة الفلسطينية اذا بحثت عن ابيها في وطن الاباء اعتبرها الصهاينة « فدائية » !

ـ « من سجن الدامون الى موسكو / حملتني اجنحة الثورة ، لا قدمي / في أسعد أرض في الدنيا / أنا ، في أعلى القمم / وتجيء الاخبار السيئة ، لتشعل ألمي / ما اقساه من ألم يا وطني / وانا المس ، اشرب ، أكل احلامي / ما اقساه من ألم ٠٠٠ ! » (٢٨) ٠

ان وجود الشاعر في موسكو ، لم يكن للسياحة ، انما انتقل اليها من شوارع الوطن المداسة بأحذية العساكر والملطخة بدماء الفلسطينيين ٠٠ من الزنازين والحقول التي يغزوها جراد الصهاينة الى البلاد التي اشرقت عليها شمس الحرية منذ عام ١٩١٧ ، حيث رفع قائد الطبقة العاملة الروسية ومعلمها الراية الحمراء تخفق على الكرملين معلنة بدء الزمن الجديد ، الزمن الشيوعي ٠

بعد زيارة الشاعر لغرفة عمل لينين في الكرملين ، كتب قصيدة « في غرفة لينين » معلنا فرحه كطفل دخل في عالم الحلم على ارض الواقع :

ـ « أكاد من الفرح البكر أبكي / انا ابن الفقير الفقير / اجوب شوارع موسكو / وادخل ٠٠ بيت لينين ! » (٢٩) ٠

لموسكو ايضا يغني الشاعر :

ـ « اشرقي يا شمس او لا تشرقي / برد موسكو لا يخيف / مستعد انا ان امشي بلا قبعة الرأس / بلا بدلة صوف / تحت ارياح الخريف / انا يكفيني دفء الود ، / من انسان موسكو / الباسل / السمح / اللطيف » (٣٠) ٠

وهكذا نكون قد وضعنا ايدينا على مجمل الهموم التي عكسها ديوان « سالم جبران » الاول « كلمات من القلب » ٠٠ وهي في الواقع الهموم اياها التي حاول معه كل من محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد عكسها ٠٠ فالشعراء الاربعة ينتمون الى جيل واحد تقريبا ، ويتحركون جغرافيا وسياسيا في خارطة واحدة ، وينتمون ايديولوجيا الى حزب واحد « راكاح » ـ باستثناء « محمود درويش » الذي خرج من سنوات ، من الحزب والبلاد ـ وينتمون قوميا الى القومية العربية الضاربة في اعماق وجدانهم وعقولهم ٠

الشكل والمضمون

ان تحليل البناء الفني للقصيدة عند « سالم جبران » في ديوانه هذا « كلمات من القلب » يرتطم بعدة عوامل تجعل الحكم على الديوان او تقييمه بمعزل عن ديوانه الثاني « قصائد ليست محددة الاقامة » الذي كتبه الشاعر بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، حكما او تقييما غير نهائي ، وهذه العوامل هي :

أولا : كتبت القصائد في مرحلة كان الشعر العربي الحديث اجمالا في بدايات تكونه وتبلوره ، فلم يصدر ديوان لشاعر جديد الا ويحمل بين دفتيه اضافة الى القصائد « الحديثة » ، قصائدا كتبت بالاسلوب الكلاسيكي العمودي ، وخصوصا قصائد الغزل والغرام ٠

ثانيا : للشاعر الشاب في الارض المحتلة وضع ثقافي خاص ، باعتباره معزولا الى حد ما عن الحركة الشعرية خصوصا والثقافية عموما في المحيط العربي ، وهذا يجعل الاداة الفنية عنده متخلفة نسبيا ٠

ثالثا : ان الشاعر الشاب في ظل الاحتلال

(٢٤) المصدر نفسه ، قصيدة « الدنيا كانت » ، ص (٦١) ٠
(٢٥) المصدر نفسه ، ص (٦٢) ٠
(٢٦) المصدر نفسه ، ص (٢٩) ٠
(٢٧) المصدر السابق ٠
(٢٨) المصدر السابق ، قصيدة « اخبار الوطن » ، ص (١٠١ ـ ١٠٢) ٠
(٢٩) المصدر السابق ، ص (٩٩) ٠
(٣٠) المصدر السابق ص (١٠٠) ٠